Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.25, Issue: 2018

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد الخامس والعشرون، 2018م.

الأنا: مفهومه وتطوره
في ضوء محاضرات العلامة محمد إقبال

الدكتور محمد جاويد
مسؤل التحرير، مجلة الكلية الشرقية،
جامعة بنجاب، لاهور

Abstract

Ego: Meaning and Developmeht
In Light of Allama Iqbal's Lectures

Ego enjoys a central place in Allama Iqbal's philosophical thoughts. His work, both in prose and poetry, is replete with the idea of ego. His usage of this very word in a positive sense has totally changed the hitherto negative connotation associated with it. Iqbal deems it essential to strengthen one's ego in order to consummate one's personality and to conquer the powers of nature. He stresses on ego so much that the fourth chapter of his magnum opus "The Reconstruction of Religious Thought in Islam" contains the very issue of human ego, its freedom and immortality. An Egyptian scholar has translated Iqbal's six, out of seven, lectures into Arabic. He did not translate the fourth one which carried a discourse on ego. This article is a complementary effort to what was left untranslated by him.

Key Words: ego, Allama Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in Islam, Abbas Mahmood, Abdul Wahhab Azzam, Taha Hussain, Savi Ali Sha'lan

ولد العلامة محمد إقبال في عصر كانت شبه القارة تئنّ تحت الحكم الإنجليزي. وكان المسلمون مضطهدين سياسة وكانت هويتهم الحضارية والثقافية في خطر. ولم تكن مواجهة هذه الأحوال المتغيرة ممكنة إلا بصورتين: الأولى، مقاطعة جميع العلاقات بالهيئة السياسية الجديدة نظراً إلى احتفاظ إرث المسلمين الديني والثقافي والتركيز على العلوم الدينية فقط. وكان تأسيس دار العلوم بديوبند وأمثالها نتيجة هذا الفكر. والثانية، محاولة التوافق والتطابق بالنظام السياسي الجديد وتعلم لغة الحكم الجديد- اللغة الإنجليزية. وكانت المراكز التعليمية مثل كلية/ جامعة علي كره تمثل هذا الفكر. ولا شك في أن هدف هاتين الصورتين هو رفاهة مسلمي شبه القارة ومصلحتهم. ولكن وقع التباعد بينهما بمرور الزمن بعد المشرقين. وكانت مصلحة المسلمين حينئذٍ في تقريب بين هاتين الصورتين. والعلامة محمد إقبال هو الشخص الذي بذل كل مجهوداته في مجال تقريب هاتين الوجهتين.

ما كان إقبال خريج المدارس الدينية في معناه المعروف بل كان مثقفاً في النظام التعليمي الجديد في الإنجليزية. وبما أنه نشأ وترعرع في بيت متدين وفي رعاية الأساتذة مثل السيد مير حسن، كان متعرفاً بأحوال المسلمين الدينية والثقافية.وبالإضافة إلى ذلك، درس إقبال مادة الفلسفة كطالب منتظم. أدّى تعرّفه على الأفكار الفلسفية الغربية وإلمامه بتأريخ الفلسفة الإسلامية في تشكيل أفكاره وتصميمها. وظهر نبوغه في منظوماته الأردية والفارسية. أما عصارة فكره وخلاصته فقد برزت في محاضراته التي ألقاها ببلاد مختلفة بالهند، وفيما بعد جمعت هذه المحاضرات وطبعت في صورة كتاب بعنوان محاضرات إقبال. ويقول الدكتور مظهر معين في هذا الصدد:

> ''يعتبر محمد إقبال(1877-1938م) من أبرز العلماء والمفكرين المسلمين في العصر الحديث. وله مؤلفات وكتابات كثيرة باللغات الأردية والفارسية والإنجليزية أشهرها وأوسعها

انتشاراً دواوين شعره باللغتين الأردية والفارسية... واشتهر بمحاضراته التي ألقاها باللغة الإنجليزية في بعض الجامعات بمدينة عليكره وحيدر آباد دكن ومدراس جمعت في كتابه المسمى:

The Reconstruction of Religious Thought in Islam (1)

ألقى إقبال هذه المحاضرات قبل تسعة عقود من الزمن تقريباً وكانت شبه القارة تسطير عليها الإنجليز. وكانت الطبقة المثقفة الجديدة، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، تميل إلى حضارة الإنجليز وثقافته ميلاً كاملاً. تعوّد الناس على التجدّد على نطاق واسع وبدأ كل شيء ينظر بنظر العقل والحواس. وكان الدين أيضاً يكال في ميزان العقل والحواس و صار الدين عرضة للتجدّد وإن كان أساسه الوحي. ولاينكر الدين العقل والحواس ولكن لايمكن للعقل والحواس إحصاءه كاملاً. و في هذه الأحوال كان ضرورياً أن يقوم الرجل ويخطب الذهن الجديد في اللغة التي يفهمونها ويوضح عليهم حقيقة الدين. ومن يستحق أن يلبي هذا التحدي أحسن من العلامة محمد إقبال الذي يعرف الفكرين الغربي والشرقي، قديماً أو جديداً.(2)

والعلامة لا ينظر ثقافة الغرب إلا صورة جديدة لثقافة الإسلام. وهويقول:

> The most remarkable phenomenon of modern history however, is the enormous rapidity with which the world of Islam is spiritually moving towards the West. There is nothing wrong in this movement, for European culture, on its intellectual side, is only a further development of some of the most important phases of the culture of Islam. (3)

فإن أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث هي السرعة الكبيرة التي ينزع بها المسلمون في حياتهم الروحية نحو الغرب. ولا غبار على هذا المنزع فإن الثقافة الأوربية في جانبها العقلي ليست إلا ازدهاراً لبعض الجوانب الهامة في ثقافة الإسلام. (4)

في الحقيقة، أسس العلامة محمد إقبال بمحاضراته علم كلام الإسلام الجديد. رفع الشكوك التي كانت تغرس في أذهان مسلمي عصره على منهج

علمي جديد. والتأريخ أحسن شاهد على أنه حينما تعارضت الشكوك، تقدم الكلاميون الإسلاميون للدفاع عن دينهم وكان العلامة محمد إقبال الكلامي الإسلامي في تاريخ شبه القارة الجديد:

> ''محاضرات إقبال هي علم الكلام للعصر الجديد وكان أهل الفكر والبصيرة ينتظرون إليه لمدة مديدة. وعلم الكلام الذي قدم إقبال كان أحسن من علم الكلام القديم بنواحي عديدة.''(5)

المكتشفات العلمية الجديدة زلزلت إيمان الناس على الدين الذي أساسه الوحي. وكان لزاماً تطبيق بين الوحي والعلوم كي يظهر مجتمع إنساني يستفيد من الاكتشافات العلمية وتستنير بنور الوحي على السواء. ومثل هذا المجتمع يضمن الرخاء والاستقرار للإنسان في هذه الدنيا:

> ''والمنهج الذي اختار في محاضراته لتجديد التفكير الديني في الإسلام عبارة عن تطبيق بين الإسلام والعلوم الجديدة (أى تطبيق بين ما بعد الطبيعة والعلوم) الدين والعلوم كلاهما من القيم الإنسانية. وإن لم يوجد التوافق بينهما لا يحظيان بالقبول لدى البشرية جنباً بجنب.''(6)

ويمكن أن نقول أن هدف إقبال الرئيسي بهذه المحاضرات هو تقديم الإسلام كجواب لمسائل العصر الجديد وتقرير أن الإسلام هو ملجأ الإنسان النهائي. ويوضح إقبال نفسه هدف محاضراته قائلاً:

> I propose to undertake a philosophical discussion of some of the basic ideas of Islam, in the hope that this may at least, be helpful towards a proper understanding of the meaning of Islam as a message to humanity.(7)

> وإني لأعتزم في هذه المحاضرات أن (أنا قش مناقشة فلسفية) بعض الأفكار الأساسية في الإسلام على أمل أن يتيح لنا

ذلك، على أقل تقدير، فهم معنى الإسلام فهماً صحيحاً بوصفه رسالة للإنسانية كافة.(8)

وألقى العلامة محاضراته في اللغة الإنجليزية. وهذه المحاضرات مليئة بالأفكار المبتكرة وهي جمعت في كتاب وهي سبع محاضرات. ولهذه المحاضرات أهمية بالغة ولاتزال أهميتها مستمرة باقية في القرون القادمة وسيستفادمنها كمصدر علمي. ترجمت هذه المحاضرات في لغات العالم المعروفة المتداولة. وكتّاب اللغة العربية أيضاً التفتوا إلى منظومات إقبال وفكره. والفهرس المذكور فيما أدناه يظهر إقبال العرب على دراسات إقبال:

- الدكتور طه حسين ''محمد إقبال الشاعر الذي فرض نفسه على الدنيا وعلى الزمان''
- الدكتور عبدالوهاب عزام ''محمد إقبال سيرته ، فلسفته وشعره''
- الصاوي على شعلان ''مختارات من شعر إقبال''
- سمير عبدالحميد إبراهيم ''إقبال وديوان ارمغان حجاز'' و ''ديوان الأسرار والرموز''
- الدكتور محمد السعيد جمال الدين ''رسالة الخلود''
- الدكتور محمد السعيد جمال الدين وحسن محمود الشافعي ''تطور الفكر الفلسفي في ايران''
- الدكتور حسين مجيب المصري ''ماوراء الطبيعة في إيران'' و ''إقبال والعالم العربي'' و''إقبال بين المصلحين الإسلاميين''.
- الدكتور عثمان أمين ''رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي''.
- نجيب الكيلان ''إقبال الشاعر الثائر''
- الدكتور أحمد معوض ''العلامة محمد إقبال حياته وآثاره''.
- الدكتور أحمد ماهر البقري ''الفكر الإسلامي في أدب إقبال''.

- عبدالمعين الملوحي ''تعريب ديوان (بال جبريل)''.
- زهير ظاظا ''فلسفة إقبال''
- أميرة نور الدين داؤد ''درر من شعر إقبال، شاعر الإسلام وفيلسوفه''
- الدكتور حميد مجيد هدو ''اقبال الشاعر والفيلسوف والإنسان''
- محمد محمود الزبيري ''محمد إقبال وموقفه من الحضارة العربية''(9)

يظهر من هذا الفهرس أن أهل مصر أكثر التفاتاً إلى آثار إقبال الشعرية وأفكاره. أما أدباء البلاد العربية الأخرى مثل السوريا والعراق والسعودية وإن كانواساهموا في الأدب الإقبالي في اللغة العربية وأضافوا إليه زيادات مفيدة إلا أن الفضل يرجع إلى كتّاب مصر. ويترشح من هذا الفهرس أيضاً أن العرب هم أكثر ميلاناً إلى منظومات إقبال وما كتبوا على فكر إقبال وفلسفته إلا قليلاً. والجدير بالذكر أن الأستاذ عباس محمود قام بترجمة عصارة أفكار إقبال أى محاضراته إلى اللغة العربية تحت عنوان ''تجديد التفكير الديني في الإسلام'' وراجع مقدمته والفصل الأول منه الأستاذ عبدالعزيز المراغي وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام و طبع من دارالهداية للطباعة والنشر والتوزيع وذكر على داخل الصفحة، تم طبع هذه الطبعة بإذن خاص من الملحق الثقافي لسفارة باكستان و بتكليف منه للدار، ولكن مع الأسف ما كتب الأستاذ عباس أي مقدمة لترجمته وطبع بدون تصدير أو تقريظ لكتابه. وكتاب إقبال يشتمل على سبع محاضرات وهي:

1) المعرفة والرياضة الدينية
2) البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية
3) الألوهية ومعنى الصلاة
4) الأنا حريته وخلوده
5) روح الثقافة الإسلامية
6) مبدأ الحركة في بناء الإسلام

7) هل الدين أمر ممكن؟

ولكن الأستاذ عباس ترجم ست محاضرات وترك المحاضرة الرابعة عنوانها الأنا حريته وخلوده. وما أشارالأستاذ عباس إلى سبب ترك هذه المحاضرة. ولوكان عباس كتب مقدمة كتابه لكان من المتوقع أن يقدم توجيه ترك الترجمة المحاضرة الرابعة.

ولا يمكن لنا أن نقدم في هذا المقال ترجمة المحاضرة الرابعة بتمامها، ولكن فيما يلي نقدم تلخيص تلك المحاضرة. ويرجى من تقديم هذا التلخيص تكميل ما ترك الأستاذ عباس في كتابه كما يرجى توضيح وتبريز أفكار إقبال بتمام الوضوع.

تلخيص المحاضرة الرابعة

الإنسان مركب من الروح والجسم وهما جهتان للوجود الذي نسمّيه الإنسان أو الذات المحدودة. وقد أخذ الفلاسفة المسلمين المتأثرين بالفكر اليوناني أنَّ الروح هي مادة رقيقة والتي تنفد بانقضاء الجسم و ستُعاد في الجسم في يوم القيامة. لما اتسع العالم الإسلامي أخذ الفلاسفة المسلمين يتأثرون بأفكارالمذاهب الأخرى مثل اليهودية والنسطورية والنصرانية والمجوسية. وبلغ التصوف في الحضارة الإسلامية إلى الأحوال الباطنية بواسطة العبادات. و قد قرَّر القرآن الأعمال الروحانية مصدر اً من مصادر العلم. وبالإضافة إليها شجع القرآن على مطالعة المصدرين الآخرين وهما التأريخ والطبيعة.

وبأن 'النفس' وحدة ناقصة فهي محدودة. فلم تزل تحاول أن تفوز بمميزات موٴثرة وعادلة ولكننا لانعرف المراحل التي ستمرخلالها لإدراك الوحدة التامة المتقنة.لا نستطيع أن نرفض هذه الحقيقة أن إحساس 'الأنا' لا يزال موجوداً فينا. إن 'النفس' حقيقة ولكن هذه الحقيقة لطيفة جداًلا يمكن للعقل أن يستوعبها. وهي تبدي وجودها في صورة الوحدة التي نسمّيها الإحساس الذهني

أو العقلي. والذهن هو اجتماع معقد للأحاسيس المتنوعة. وهذه الأحوال الذهنية ليست منفردة ومستقلةً. لا نجد هذه الوحدة بين اجتماع الأشياء المادية. وتكون وحدة الأحوال شيئاً ممتازاً. ولا تتعلق فكرة المكان الذهني بالمكان الخارجي فقط بل 'النفس' تقدر أن تتخيّل الأنظمة العديدة للمكان الخارجي. يختلف تصور المكان الذي يوجد في شعورنا من المكان الذي يكون في حال اليقظة. و لا يلج ولا يمتزج بعضهما بعضاً. تبدو الوقائع الذهنية والبدنية في دائرة الزمان لكن زمن النفس يكون مختلفاً من الجسم أصلاً. والحادثة البدنية أو الطبيعية تكون حقيقة بسبب علاقتها بالمكان لكن مدة النفس الزمني هي من النوع الداخلي و تنتمي إلى حال الباطن ومستقبله. إذا وقعت الحادثة البدنية تركت آثارها و تعيننا في تقدير الوقت المصروف عليها. لهذا تعد هذه الآثار المدة الزمنية ولا تعتبر من المدة الزمنية نفسها. وتتعلق المدة الزمنية بحالنا الذهني أو 'الأنانية'. ونقدم بعض الأمثلة في إثباتها. مثلاً إذا تحققت أمنيتي شعرت بالسرور الذي لا يجده غيري، أو إذا أحسست بالوجع في سِنّي فوجدت نفسي إحساسها ولا يشعرها طبيب الإسنان. لهذا أنا نفسي أملك أمانيّ وابتهاجي و هما تظهران من أنانيتي. وكذلك إذا لقيتك وعرفتك فهذا العمل يظهر أنني لقيتك قبل ذلك. ويكون لقائي معك على أساس الحادثة الماضية وليس له صلة بتجربة أخرى أو حدث آخر. نحن نعبّر هذا الحال النفسي أو الذهني بكلمة 'أنا'. وهذا 'أنا' الذي هو 'أنانيتي'. إن الشعور وحدة مستقلة وهو أصل الحياة الإنسانية. ونشعر بالأنانية عند تفكيرنا في شخص ما أو حكمنا عليه أو إرادتنا عنه. ولاتزال حياة الأنانية تنازع ماحولها و الأنانية هي القوة التي تقودنا خلال هذا النزاع. وهي تتكون وتتربّى تحت ممارستها. ويعتمد كشف أصل الأنانية على حالنا الشعوري. لا تنفصل الأنانية من شعورنا ومدركاتنا الشخصية بل هي تشتمل عليها.

ليست الشخصية شيئاً مجرداً بل هي اسم العمل. وخبرتي هي دوام أعمالي وتتحد هذه الأعمال لأنها تتبع مقصداً خاصّاً. وهويتي تعتمد على عمل

مستمر. لا تستطيع أن تشعر إدراكي بمساعدة شيء موجود في المكان، و لستُ استمرار الممارسات والوقائع حسب الترتيب الزمني. إن أحببت معرفتي فعليك أن تنظر إلى سلوكي وقضيتي وعزائمي وأماني وأهدافي.

لوحسبنا أن الروح والجسم لهما وجود مستقل و لا توٴثر الروح في الجسم ولا الجسم له أثر في الروح فذلك يدل أنهما يتحركان موازيين على إنفراد. حينئذٍ تشاهد الروح أمور الجسم نظرة رقابة وبناحية أخرى إذا فكرنا أن الروح والجسم يؤثر أحدهما في الآخر فيبرز السؤال متى؟ ثم من يسبق؟ لعل الجسم يستخدم الروح لأغراضه أم الروح تستعمل الجسم لمفادها؟ أخيراً نصل إلى النتيجة أن هاتين الفكرتين غير مقنعين. مع ذلك يكون الذهن (الروح) والجسم مماثلين في حين العمل. وقد أثبت ارتقاء الحياة أن المادة تفوق الذهن لكن الذهن يكون مستقلاً حينما يتقوى ويفوق المادة. والأنانية بنفسها علة مستقلة بسبب بصيرتها وتناسقها وغايتها وتصرفها. كأن الإنانية المطلقة قد حددت اختيارها لمّا احتملت استقلال الأنانية المحدودة. وإن الإسلام يعترف بجانب مهم للنفسية البشرية وهو أنه يزيد قوة الاستقلال والاختيار مرة في الإنسان وتقلّ أخرى. مع إن الإسلام باعتبار العقيدة يريد أن تكون قدرة الاستقلال والاختيار جزءاً نظامياً لحياة الأنانية.

لا يريد الإسلام الاستسلام عدة من العقائد دون أي تفكير بل هي حالة اطمئنان نفسي يبلغ إليها الإنسان عندما يواجه المحن والتجربات الروحية ويليق لها أولئك الأشخاص الذين يصبرون على الصعوبات الواقعة في هذا السبيل بالقوة والمتانة. لمّا تقدم المسلمون إلى التجربة الروحية امتثالاً لحديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم: " تخلقوا بأخلاق اللّه"، فنرى تأريخ الإسلام يقدّم العديد من أمثلة للتقرب والاتصال والتي تحتاج إلى معرفة صحيحة. فمثلاً أنا الحق (قول منصور الحلاج رحمه الله)، أنا الدهر (وفي الحديث: لاتسبوا الدهر)، وأنا القرآن

الناطق (قول على رضي الله عنه) ما أعظم شأني (قول بايزيد البسطامي رحمه الله) فيبدو من هذه الأمثلة أن التقرب الذي تعد من المراتب العالية في التصوف الإسلامي ليس معناه أن تفنى الأنانية المحدودة نفسها بعد اختفاء ها في الأنانية المطلقة فيظهر 'أنا' في كل مثال، بل يقصد به إدخال المطلقة في حزّ المحدودة مع بقاء كل منها.

ولايزال المسلمون يتبعون أمر القدر دون تبصر خلال القرون وها هو ذا الاعتماد بالقدر الذي يعبره مو'لفوا الغرب بكلمة القسمة. ويشهد التأريخ بأن تصور القدر هذا نتيجة الأفكار الفلسفية التي كانت لها صلة بالمصالح السياسة. وأذيعت نظرية العلة والمعلول والتي انتهت إلى ذات الباري تعالى حيث لا يحدث شيئى إلابإذن اللّه. ثم فسدت الأحوال حين أخذ المسلمون يبرّرون أعمالهم من القرآن مع كون خلاف ما يذهبون إليه كلمات القرآن فصارت تعبيراتهم في باب القدر أشدّ هلاكاً و خطراً على مستقبل المجتمع الإسلامي.

إن الوجود الإنساني وحدة. وبعض البراهين لها صلة بعلم الأخلاق في باب تشجيع الحياة بعدالموت. و إن تصور القدر الإنساني الذي نجده في القرآن الكريم هو أخلاقي وحيوي معاً. مثلاً فكرة البرزخ الذي حالة الوقوف أو الانتظار بين الموت والحشر. وفي الإسلام يختلف تصور الحياة بعد الموت بمناسبة ما يوجد في المذاهب الأخرى. وفي ضوء عقيدة النجاة في الإسلام ستنهض الأنانية المحدودة أمام الأنانية المطلقة وهي تحوز ذاتها. هكذا هي تقدّر ما تكون عاقبتها.

إن أعمال الإنسان هي تدعم أنانيته أو تصبح سبب هلاكه. فتعتمد فناء الأنانية أو إحياؤها بعد الموت على أعماله يعني الحياة بعد الموت ليس حق الإنسان لكنه يرجوه. إن استقامت الأنانية بمساعدة عملها وسعيها فلن يضرها الموت أبداً. وفي تلك الحال يصبح الموت طريقاً له و الذي يسميه القرآن البرزخ.

وتلحق مصلحة الإنسان بنوع من أنواع الجسد العنصري. ولا تفنى سلسلة حياتها بهلاك جسمه. والجنة وجهنم هما حالتان وليسا بمكان أو مقام

بمعنى أنه يجد الإنسان مظهر أحواله الباطنية أمام عيونه في الحالتين المذكورتين. وإن جهنم هي إحساس الإنسان بفشله والمراد بالجنة إحساس بمسرة الغلبة والسيطرة على قُوى الهلاك. والمصطلحات القرآنية للخلود والأحقاب هي مدة الزمن المعين خلاف القيام فيها أبداً دائماً. ليست جهنم بهاوية والتي يصبر المجرمون فيهاعلى العقوبات ولا الجنة حالة دائمة للعيش والاستراحة. إن الحياة لها دوام فيتقدم الإنسان لمشاهدة خلق الله المتنوع وإن حياة الأنانية هي حياة اختيارية. وكل عملها ابتكاري ويفتح لها أبواب الاختراع.(10)

المصادر والمراجع

1. مظهر معين (الدكتور)، الأطياف الخمسة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بنجاب، لاهور باكستان، 1009م، ص 103.
2. جاويد مجيد (الدكتور)، تلخيص نفيس خطبات اقبال وجان دوئى، دبستان إقبال، لاهور، 2016م، ص 6.
3. The Reconstruction of Religious Thought in Islam, Allama Muhammad Iqbal, Institute of Islamic Culture, Club Road Lahore, 9th Edition 2014, p,6
4. تجديد التفكير الديني في الإسلام. ترجمة عباس محمود، دار الهداية، الطبعة الثانية، 2000م، ص15.
5. انظر سعيد أحمد أكبر آبادي، خطبات إقبال پر ايك نظر، إقبال إكادمى پاكستان لاهور، الطبعة الثانية 1987م، ص11.
6. محمد سهيل عمر، خطبات إقبال نئے تناظر ميں، إقبال اكادمى، لاهور، الطبعة الثانية 2002م، ص 34.
7. The Reconstruction of Religious Thought in Islam, p,9
8. تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية، ص 17.
9. انظر تاليف، دكتور خورشيد رضوى، تاج مطبوعات، لاهور، اكتوبر 1995م، ص 111-137.
10. جاويد مجيد (الدكتور)، تلخيص نفيس خطبات إقبال وجان دوئى، دبستان إقبال، ص 45-50.

*_*_*